

أسس وقواعد القتال في الإسلام

في ضوء القانون الدولي

أ.د. إبراهيم علي محمد أحمد*

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قائد
الغر المحجلين ، نشهد أنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة
وكشف الغمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين ونحن على ذلك
من الشاهدين .

عندما جاء الإسلام وجد أن من أهداف وأغراض الحروب
السلب ، والنهب والقتل والإغارة ، والظلم والبغي والعدوان ، وأخذ
الثأر ، والفوز بالمغانم ، وكبت الضعيف ، وتخريب العمران ،
وتدمير البنيان ، وهتك حرمت النساء ، والقسوة بالضعاف ، وإهلاك
الحرث والنسل .

فكان رحمة للعالمين ، إذ جعل من أهداف الحرب حماية حرية العقيدة
، وتأمين انتشار الإسلام بين الناس طوعاً لا إكراهاً : (لا إِكْرَاهَ فِي

* أستاذ الدعوة وثقافة الإسلامية ومدير معهد وبحوث ودراسات العالم الإسلامي

الَّذِينَ ط قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ؕ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ؕ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (١). وجعل من أهدافها صد الاعتداء الخارجي على بلاد
المسلمين : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٢﴾) (٢).

إن الحرب في الإسلام حربٌ دفاعيةٌ لا يبدأ المسلمون فيها
بالاعتداء على أحد، ولا تشن الحرب في الإسلام إلا لتحقيق غاياتٍ
وأهدافٍ نبيلةٍ مثل تخلص المستضعفين من الرجال والنساء الذين
يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . ولتطهير الأرض
من الغدر والخيانة والإثم والعدوان ، والعمل على بسط الأمن
والسلامة والرفاة والرحمة وتخلص الإنسان من القهر والعدوان ،
إلى ظلال العدل والسلم والأمان ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ،
ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إن فالقتال في الإسلام هو في سبيل الله لا في سبيل الأمجاد
والاستعلاء في الأرض ، ولا في سبيل المغانم والمكاسب ، ولا في
سبيل الأسواق والخامات ولا في سبيل تسويد طبقةٍ على طبقةٍ أو
جنسٍ على جنس . إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من

أجلها شرع الله القتال في سبيله ، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم أو أن يجرفهم الضلال والفساد . ما عدا ذلك فهو قتالٌ غير مشروع في الإسلام وليس لمن يخوضه أجرٌ عند الله ولا مقام⁽³⁾.

كما أن الإسلام شرع للحرب أسساً وقواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده، وقواعد ولم يسمح بالخروج عنها بحال وهذا ما نود إثباته في هذا البحث بعون الله وتوفيقه مقارنين ذلك بالقانون الدولي . يأتي هذا البحث في تمهيد ، وأربعة مباحث ، تتناول في التمهيد بيان أن الحرب في الإسلام حربٌ عادلةٌ ، وفي المبحث الثاني معاملة الجرحى من الأعداء، والثالث يتضمن معاملة الأسرى والرابع عن المدنيين ثم يلي ذلك الخاتمة.

التمهيد

الحرب في الإسلام حرب عادلة :

قبل الخوض في الحديث عن عدالة الحرب في الإسلام لابد لنا من الوقوف على تعريف الحرب العادلة والتي تنص عليها مصادر وقوانين الحرب والحياد في القانون الدولي والتي تعرف الحرب العادلة بأنها :

(هي حربٌ توجه ضد شعبٍ ارتكب ظلماً نحو شعبٍ آخر ولم

يشأ رفعه ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية ، وتكون لغرض تحقيق سلم دائم، ووجوب احترام حياة وأملاك الأبرياء ، وحسن معاملة الأسرى والرهائن⁽⁴⁾.

إن الناظر إلى حقيقة الحرب في الإسلام قبل أربعة عشر قرناً وربع القرن، يجد فيها من القواعد الإنسانية ، أكثر مما تنص عليه مصادر القانون الدولي في القرن العشرين ، فهي بالإضافة لاشتمالها على محتويات التعريف السابق، فهي حربٌ ليست عنصرية ولا لأغراضٍ مادية ، أو استعمارية ، بل تدافع عن حرية الرأي ، والعقيدة ، وليست هي مجرد شعارات ، وادعاء بل سنورد الأدلة والشواهد العملية على ذلك من واقع أحداث الحروب التي دارت في صدر الإسلام وسنفصل القول في ذلك :

1 - الحرب في الإسلام دفاعية :

إذا تأملنا وقائع أحداث السيرة العطرة⁽⁵⁾ نجد أن قريشاً ارتكبت كل أنواع وأشكال الظلم ضد المسلمين عندما كانوا في مكة ، فقتلت وعذبت وجردت الأموال وحبست ومارست الحصار الاقتصادي والاجتماعي على المسلمين .. بل حتى النبي ﷺ لاقى من قريش ما لاقى من تعذيبٍ مادي وجسدي وحربٍ نفسيةٍ عسيرة. بل وصل الأمر بقريش إلى تدبير مؤامرة القضاء على رسول الله ﷺ قائد

الدعوة ولكنه نجا من مطاردة قريش له أثناء هجرته إلى المدينة المنورة فأَي ظلم أكبر من هذا؟ .. ومع كل ذلك حينما فتح النبي ﷺ مكة قال لقريش اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ولم يقاتل النبي ﷺ عدواً أما لرد اعتداء أو إحباط نية اعتداء ولم يجد من عدو ميلاً للسلام والسلم إلا بادر إلى تشجيع هذا الميل وعقد معه تحالفاً .

عند دراسة الباحث لغزوات وسرايا الرسول ﷺ يجد أن المسلمين لم يريدوا بقتالهم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، فقد بقى من رجالات قريش على الشرك بعد الفتح ومع علم المسلمين التام بأنهم على عقيدتهم الأولى ولم يجبروهم على تبديل دينهم والدخول في الإسلام لأن المبدأ كما أسلفنا (لا إكراه في الدين) وخير شاهد على ذلك صفوان بن أمية وكعدة بن الجعيد وغيرهم .

لم يكن بإمكان المسلمين أن يجبروا هؤلاء على اعتناق الإسلام بعد أن استسلمت قريش وفتحت مكة أبوابها؟ بل حتى الفتوحات التي تمت خلال عهد الخلفاء الراشدين لم يكن فيها إكراه لأحد للدخول بل بقى كثير من النصارى واليهود على دينهم بل غاية القتال والحرب في الإسلام هي حماية حرية الدعوة الإسلامية بالقناعة والاقتناع وليس الغاية هي نشر الإسلام بحد السيف كما يثير البعض.

ومع أن الحرب في الإسلام دفاعية لكونها بعيدة عن الظلم والعدوان فالمسلمون لا يبدأون ولكنهم يدافعون عن أنفسهم ضد أي اعتداء أو ظهور نية للاعتداء، أو منع الناس من الدخول في الإسلام أو منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه. فحينها يهب المسلمون مدافعين عن تلك المبادئ ورد العدوان وردع الظالمين.

2 - الحرب في الإسلام لتوطيد السلام :

بعيد هجرة الرسول ﷺ وصحبه إلى المدينة ، وجد مجتمع المدينة يتكون من ثلاثة فئات لكل فئة معتقداها فالغالبية من المسلمين ، يليهم اليهود ثم المشركون فوجد النبي ﷺ ميلاً للسلام لدى جميع الأطراف فسمى النبي ﷺ ذلك الميل وشجعه وعقد معاهدة عرفت بوثيقة المدينة كفلت حرية الرأي والعقيدة والأمن والأمان لأهل المدينة . بل نجد أن النبي ﷺ عقد صلح الحديبية على الرغم من تذمر بعض أصحابه رضي الله عنهم ، وكان هذا الصلح مع ألد أعداء المسلمين (قريش) . ولقد وضح ذلك الصلح أن الإسلام يؤدي إلى الاستقرار وقد انتشر الإسلام في فترة صلح الحديبية انتشاراً عظيماً فقد كان عدد المسلمين إبان صلح الحديبية لم يتجاوز ألف وخمسمائة من المقاتلين ، ففي ظرف سنتين بلغ عدد المقاتلين عشرة آلاف مقاتل (6).

والمتتبع لغزوات وسرايا الرسول ﷺ يجد أنه ما جنح عدو من أعدائه إلى الإسلام والسلام ، إلا وجنح لها الرسول ﷺ وشجعها ، كما فعل مع بني ضمرة في غزوة ودان⁽⁷⁾. ومع بني مدلج في غزوة العشيرة⁽⁸⁾. مما يؤكد أن السلام في الإسلام هو القاعدة الثابتة والحرب هي الاستثناء.

ولكن لابد أن نوضح أن الإسلام يدعو إلى سلام العزة والكبرياء لا سلام الاستسلام والخنوع والمذلة والمسكنة حتى لا يظن العدو أن بالمسلمين ضعفاً أو خوراً .

3 - الحرب في الإسلام حرب إنسانية :

لقد كرم الله بني آدم قال جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (٥٧)⁽⁹⁾. فجاء الإسلام لتكريم الإنسان واحترام كرامته عامة . وأولئك الأشخاص الغير مشاركين في القتال والذين أصبحوا غير قادرين على القتال بسبب الإصابة أو المرض . أو الاستسلام فأمر الإسلام بتجميعهم ، واحترامهم ، وحمايتهم من ويلات الحرب . فاحترام الإسلام في الحرب للأبرياء والأسرى ، والرهائن ، والجرحى ، والمصابين ، والقتلى ، واحترام المدنيين من نساء وأطفال وشيوخ وغيرهم . وهذا ما سنوضحه في ثنايا هذا البحث بعون الله .

4 - الحرب في الإسلام ليست لأغراض شخصية :

لم تثر الحرب في الإسلام لأغراض شخصية ففي الإسلام تقدم المصلحة العامة على الخاصة . فلم تكن المطامع الشخصية وحب الأمجاد سبباً من أسباب إثارة الحرب في الإسلام . ولقد عرضت قريش على رسول الله ﷺ المال والشرف ، والملك فرفض كل ذلك وكان الرد على قريش وعمه أبي طالب : (يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) (10). فلم تكن للأغراض الشخصية أي أثر على الحرب لا من بعيد أو قريب بل الهدف والغاية حماية نشر الدعوة.

5 - الحرب في الإسلام ليست حرباً عنصرية:

جاء الإسلام للناس كافة (قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (11) فهو دين الإنسانية جمعاء فلم يأت لقبلية دون قبيلة ولا أمة دون أمة ولا شعب دون شعب ولا جنس دون جنس (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (12). لقد قاوم الإسلام قبل أربعة عشر قرناً وربع القرن قاوم العنصريات، والأجناس ودعا إلى الوحدة وحدة العقيدة فمن آمن بالإسلام بات دمه وعرضه وماله حراماً على المسلمين وله

مالهم وعليه ما عليهم ولم يمنع انتماء الرسول ﷺ إلى قريش لم يمنعه من حربها بل قاتلها عدة مرات حتى أظفره الله بها. ولو كانت الحرب عنصرية لما قاتل الرسول قومه وعشيرته من قريش. بل بات أعداء الإسلام على اختلاف قومياتهم وأجناسهم بعد دخولهم وأنصارهم بالمسلمين ، باتوا أمةً واحدةً فأصبح عليهم ما على المسلمين ولهم ما للمسلمين.

6 - الحرب في الإسلام ليست حرباً مادية :

لم تكن المادة يوماً غرضاً من أغراض الحرب في الإسلام . كما لم يكن البحث عن الأسواق ، والخامات واستعمار خيرات الشعوب هدفاً من أهداف القتال في الإسلام . وإذا ظن البعض أو توهموا أن سبب غزوة بدر كان مادياً فهم واهمون جداً. نعم خرج المسلمون للتصدي لقافلة قريش العائدة من الشام لأنهم أرادوا أن يحرموا قريشاً من طريق تجارتها إلى الشام فتتأثر بذلك حالتها الاقتصادية فتخفف من شدة عداوتها على المسلمين ، ولكن نجد أن العير قد أفلتت ، ومع ذلك اشتبك المسلمون مع قريش في معركة بدر الكبرى ، ولو كان الهدف مادياً بحثاً لعادوا أدراجهم إلى المدينة المنورة عندما علموا بوصول قافلة قريش إلى مكة سالمةً ، وكان الرجوع متاحاً ومتيسراً للغاية .

وفي غزوة حنين والتي غنم فيها المسلمون غنائم كبيرة جداً وكثيرة فقد انتظر الرسول ﷺ وفد هوازن ما يقارب الشهر ليعيد إليهم ما غنمه المسلمون من أموالهم . ولكنهم لم يحضروا ، فاضطر إلى توزيع الغنائم ، وأعاد السبي إلى وفد هوازن الذي وصل بعد توزيع الغنائم على الناس ، فلو كان الهدف مادياً لما كان الانتظار ولما رد السبي⁽¹³⁾. مما سبق نخلص إلى أن لحرب في الإسلام حرب مثالية بقدر ما تحمل الكلمة من معان لأن أهدافها واضحة فهي الدفاع عن حرية العقيدة والرأي وتوطيد دعائم وأركان الإسلام . ولم تكن حرباً عنصرية ، ولا لدفاع وأغراض شخصية، ولا طمع مادي ، فهي تصون الأرواح والأموال والأعراض ، وتكرم الأسرى وتواسي الجرحى والمرضى ، وتكرم الموتى بدفنهم ، ولا تمثل بالقتلى ، فإذا لم تكن الحرب في الإسلام هي الحرب المثالية فأى حرب في التاريخ كله يمكن أن يطلق عليها هذا التعبير⁽¹⁴⁾.

المبحث الأول : أسس وقواعد القتال قبل بدء الاشتباك :

لقد وضع الإسلام أسساً ، وقواعد ألزم بها المقاتلين قبل القتال وطلب منهم الالتزام بها، والتقيد التام بتوجيهاتها ومن هذه القواعد :

1 - دعوة العدو للإسلام أو الجزية أو النزال :

إن من القواعد الثابتة في الإسلام وقبل بداية القتال ، أن يخير

العدو بين الإسلام فإن دخل في الإسلام فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وإن رفض الدخول في الإسلام ، فيطلب منه دفع الجزية ، ويكون آمناً على نفسه وماله وعرضه ، ويدافع عن المسلمين ، وإن رفض الإسلام والجزية لم يبق أمام الجيش المسلم إلا القتال.

2 - لا يُقاتل إلا المقاتلون :

قال جل شأنه : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا^٤ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^٥) (15).

قال سيد قطب رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى : (وَلَا تَعْتَدُوا^٤

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ^٥) قال : (والعدوان يكون بتجاوز

المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الأمنيين المسالمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية ولا الجماعة المسلمة...) (16).

عليه فلا ينبغي أن يقاتل المسلم غير المحاربين المقاتلين فقط ولا يتعداهم إلى سواهم . وهذا ما يقابله في القانون الدولي (لا تقاتل إلا المقاتلين).

3 - لا هجوم إلا على الأهداف العسكرية :

نهى الإسلام عن مهاجمة الأهداف غير العسكرية وقصر الهجوم

فقط على الأهداف العسكرية لقد ورد في وصايا الرسول ﷺ : (...)

ولا تقتلوا وليداً ... ولا مغزولاً بصومعة . ولا تقربوا نخلًا ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً⁽¹⁷⁾. فالنهي عن مهاجمة الصوامع والنهي عن التعرض للنخيل والنهي عن قطع الأشجار وهدم البنيان كلها تدل على النهي عن مهاجمة الأهداف غير العسكرية والاقتصار فقط على الأهداف العسكرية وهذا ما يقابله في القانون الدولي الإنساني (لا تهاجم سوى الأهداف العسكرية) ويقابله أيضاً : (لا تدمر إلا ما تطلبه مهمتك العسكرية) .

4 - عدم مهاجمة المدنيين :

لقد نهى الإسلام عن مهاجمة وقتل المدنيين كالنساء والأطفال والشيوخ والمنعزلين للعبادة ، ومن الأدلة على ذلك :

أ/ كان رسول الله ﷺ إذا ودع جيشاً قال : (أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، أغزوا باسم الله في سبيل الله ، من كفر بالله ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ...) (18).

فالنهي هنا واضح عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ والمنعزلين للعبادة وهذا ما سنفصله في المبحث الرابع من هذا البحث بإذن الله .

ب/ روى مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في وصيته لجنده : (... ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ،

فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً
هرماً⁽¹⁹⁾. فنجد أن النص صريح في هذه الوصية من الخليفة الراشد
سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ومعلوم أن ما يصدر عن الراشدين سنة
واجبة الاتباع . ونجد هذه القاعدة يقابلها في القانون الدولي الإنساني
قولهم : (لا تهاجم المدنيين ولا عيان المدينة) . فهذه باختصار أهم
القواعد والأسس التي ينبغي اتباعها قبيل القتال ورأينا كيف أن القاعدة
الثانية والثالثة والرابعة تطابق ما جاء في القانون الدولي الإنساني في
اتفاقية جنيف والتي كانت في منتصف القرن العشرين (1949م)
وعليه يكون الإسلام قد سبق هذه الاتفاقية بعدة قرون ، وطبق هذه
القواعد تطبيقاً عملياً واقعياً في جميع حروبه في صدر الإسلام
والخلافة الراشدة فكان ذلك بمثابة (بيان بالعمل) . وسوف نفصل في
المبحث الثاني من هذا البحث مزيداً من التفصيل في تلك الأسس
والقواعد المتعلقة بمعاملة الجرحى والقتلى من الأعداء .

المبحث الثاني : أسس وقواعد معاملة الجرحى والقتلى :

أ/ العناية بالجرحى :

لقد اعتنى المسلمون بجرحى أعدائهم في كل غزواتهم لأن هذا
الاعتناء قضية إنسانية ، والإسلام دين الإنسانية جمعاء ، ولقد كان
بعض أسرى المشركين في غزوة بدر جرحى ، وقد اعتنى المسلمون

بتمريضهم عنايتهم بجرحاهم سواء بسواء⁽²⁰⁾. كما نجد أن النبي ﷺ قد نهى عن الإجهاز على الجريح ، أي نهى عن قتل الجريح فقال ﷺ : (ولا تجهزن على جريح)⁽²¹⁾.

ب/ العناية بالقتلى والنهي عن المثلئ بهم :

لقد جاءت تعاليم الإسلام واضحة في هذا الصدد فقد أخرج مسلم وأبوداؤود والترمذي عن بريدة قال كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال له : (اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً)⁽²²⁾ ، والشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ : (ولا تمثلوا) والمثلئ هو تشويه الميت بقطع أطرافه أو قطع أذنيه ، أو فقع عينيه ، أو جدد أنفه أو بقر بطنه فكل ذلك وغيره منهي عنه . وعن عبدالله بن يزيد الأنصاري رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ (النهبي والمثلة)⁽²³⁾.

ج/ النهي عن التشفي في القتل :

نهى الإسلام عن التشفي في القتل وأمرنا بحسن القنلة فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (اعف الناس قنلة أهل الإيمان)⁽²⁴⁾.

كما أمرنا الرسول ﷺ بتجنب وجه الإنسان في القتل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قاتل أحدكم فليتنجب الوجه) (25).

وعن أبي يعلى قال : غزونا مع عبدالرحمن بن خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فأتى بأربعة أعلاج من العدو أمر بهم فقتلوا صبراً وهو القتل بصفحة السيف لا بشفرته وفيه نوعٌ من التعذيب بالموت البطيء ، فبلغ ذلك أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر. فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتها فبلغ ذلك عبدالرحمن فاعتق أربع رقاب كفارةً للقتل الخطأ(26). عليه فلا ينبغي التشفي في القتل بل علينا إحسان القتل.

د / دفن قتلى العدو :

إن من الآداب المتبعة في الإسلام إبان القتال هي إكرام الإنسان الذي كرمه المولى عز وجل ، حياً كان أو ميتاً ، ومن هذا المنطلق فقد سن النبي ﷺ سنة دفن قتلى الأعداء فقد أمر ﷺ بدفن قتلى المشركين البالغ عددهم سبعين قتيلاً ، فدفنهم في القليب ، ولم يتركهم في العراء ، في الوقت الذي مثل فيه المشركون بقتلى المسلمين في أحد أفظع تمثيل (27).

وهكذا نجد أن الإسلام وضع أسساً وقواعد لمعاملة الجرحى والقتلى فأمر بالعناية بالجرحى بتضميد جراحهم والرافة بهم حتى تلتئم جراحهم ، ونهى عن تشويه القتلى والمثلى بهم ، وأمر بعدم التشفي في القتل والإحسان فيه كما أمر بدفن قتلى العدو وعدم تركهم في العراء . وهذا الذي ذكرنا سبق به الإسلام قانون الحرب والحياد من القانون الدولي الذي يقول عن الواجبات نحو الجرحى.

(يجب احترام وحماية الجرحى والعناية بهم كجرحى قواتنا واعتبارهم أسرى حرب بعد شفائهم) (28).

ويقول القانون الخاص بالحرب والحياد من القانون الدولي ، يقول عن الواجبات نحو القتلى :

(يفرض على الفريقين المتحاربين معاملة جثث القتلى بالاحترام اللازم وعدم تشويهها ، ويجب دفنها بعد أخذ البيانات المساعدة لتحقيق شخصية صاحب الجثة) (29).

المبحث الثالث : معاملة الأسرى :

لقد سبق الإسلام قانون الحرب والحياد من القانون الدولي بقرون عديدة، ووضع أسس وقواعد لمعاملة الأسرى ، قمة في الإنسانية ، وفيها إكرام أيما إكرام للإنسان ، أياً كان جنسه أو لونه ، فإذا حدد القانون الدولي الواجبات نحو الأسرى بالنص التالي :

(يجب معاملة الأسير طبقاً لمبادئ الإنسانية ، وحمايته من الاعتداء ، والإهانة ، وحب الاستطلاع عند الجمهور ، ويجوز تشغيل الأسرى بأعمال على ألا يكون العمل خطيراً ، أو ضاراً بالسمعة ، أو متصلاً اتصالاً مباشراً بأعمال القتال) ⁽³⁰⁾. هذا هو القانون الدولي ولا تعليق لدينا إلا عقب عرض معاملة الإسلام للأسرى . لقد أسر المسلمون في أولى معاركهم (غزوة بدر) سبعين أسيراً فوزع ثمانية وستين من هؤلاء على أصحابه قائلاً لهم : (استوصوا بالأسارى خيراً) ثم فادى الأغنياء من الأسرى بشئ من المال ، أما الفقراء فأطلق سراح بعضهم دون مقابل. وكلف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة ثم أطلق سراحهم بعد تعليمهم للأطفال . ولقد أمر رسول الله ﷺ بقتل أسيرين من السبعين أسيراً ، لأنهما أجرما بحق المسلمين وعذبوا ونكلوا بالمستضعفين المسلمين بمكة وقادوا حرباً لا هوادة فيها ضد الإسلام في تأليب الناس عليه فكان قتلهما لجرمهما لا لأنهما أسيران كما يزعم ويدعي بعض المغرضين ويمكن أن يطلق على هذين الأسيرين (مجرمي حرب) وفق التعابير العسكرية المعاصرة فكان الجزاء جراء ما جنت أيديهما من جرائم .

الحق ما شهدت به الأعداء :

سنورد في هذا المقام شهادة وإقرار أحد أسرى المشركين وهو

من أعداء المسلمين وقيل إن الحق ما شهدت به الأعداء يقول أبو عزيز وهو أحد أسرى المشركين ببدر يقول : (كنت في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز ، وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله ﷺ إياها بنا - بقصد قوله ﷺ (استوصوا بهم خيراً) - ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فاستحي فأردها فيردها على ما يمسهـا⁽³¹⁾ .

أي معاملة كريمة هذه وأي بشر هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم تمسكاً بتعليمات القائد الأعلى ﷺ ووصيته بالأسرى خيراً ، إنها نماذج ما شهدت وقائع التاريخ في الماضي ، ولا أظن أن تشهدا في المستقبل وحتماً ليست هي موجودة في عصرنا الحاضر .

وإذا قارنا بين ما هو موجود في القانون الدولي وفي الإسلام لرأينا أن الإسلام سبق القانون الدولي في العناية والمعاملة الكريمة للأسرى، ثم الوارد بحق الأسرى، لأن الخير لفظٌ عامٌ شاملٌ لكافة أنواع المعاملة الحسنة الكريمة والتي تصل إلى حد الإيثار كما ورد في شهادة أبي عزيز سألته الذكر بينما عبارات القانون محددة ومقيدة .

وإذا تأملنا السيرة النبوية وتابعنا مجريات الأحداث فيها نجد أن

معاملة الأسرى كانت وفق الآتي:

1 - يتم تجريد الأسير من سلاحه .

- 2 - لا يؤذى الأسير ويعامل معاملة كريمة .
 - 3 - يتم تسليم الأسرى للقائد .
 - 4 - يخطر ذويهم وعائلاتهم بوقوعهم في الأسر .
 - 5 - مبادلتهم بأسرى مسلمين إن وجدوا .
 - 6 - مفاداتهم بالمال .
 - 7 - العفو عنهم .
 - 8 - النهي عن التفريق بين المرأة وولدها في الأسر .
- ولا يفوتنا هنا أن ننوه إلى أن هناك أحكاماً فقهية خاصة بالأسرى لم نتطرق إليها في هذا المبحث بل ركزنا فقط على جانب المعاملة الإنسانية للأسرى أما الأحكام الفقهية فمجالها غير هذا البحث. نختتم بما أورده صاحب الضلال في تفسيره لآية الأسرى في سورة الأنفال قال : (إن الإسلام إنما يستبقي الأسرى لديه ، ليلمس في قلوبهم مكامن الخير، والرجاء والصلاح ، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى ، لا ليستذلهم انتقاماً ولا ليسخرهم استغلالاً كما كانت تتجه فتوحات الرومان ، وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام) (32).

المبحث الرابع : معاملة المدنيين :

لم يتعرض الرسول ﷺ وصحبه الكرام رضي الله عنهم في

الغزوات والسرايا لغير المقاتلين ، وكانوا حريصين على صيانة واحترام أرواح وأموال وممتلكات الأبرياء ، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة ، وقبل ذلك آيات الذكر الحكيم ، وسنورد هنا عدداً من الأدلة على حسن معاملة المدنيين :

1 - أورد الأقرطبي في تفسير قوله تعالى : (وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ﴿٣٣﴾

(٣٣). قال : (... وقال ابن عباس ، وعمر بن عبدالعزيز ، ومجاهد : هي محكمة ، أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم ، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان وشبههم .. إلى أن قال : وبهذا أوصى أبوبكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام إلا أن يكون لهؤلاء إداية ، أخرجته مالك وغيره وللعلماء فيهم صور ست) (٣٤).

الأولى : النساء إن قاتلن - أي لا يقتلن إلا إذا قاتلن - قال سحنون :

في حالة المقاتلة وبعدها لعموم قوله تعالى : (وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ) (واقتلوهم حيث تقفتموهم) وللمرأة آثارٌ عظيمةٌ في

القتال منها الإمداد بالأموال ومنها التحريض على القتال/ قد يخرجن

ناشرات شعورهن ، نادبات مثيرات معيرات بالفرار ، وذلك يبيح

قتلهن ، غير أنهن إذا حصلن في الأسر فالاسترقاق أنفع لسرع

إسلامهم ، ورجوعهم عن أديانهم ، وتعذر فرارهم إلى أوطانهم بخلاف الرجال .

الثانية : الصبيان فلا يقتلون للنهي الثابت عن قتل الذرية ، ولأنه لا تكليف عليهم ، فإن قاتل الصبي قتل ، لقوله : (ولا تقتلوا وليداً).

الثالثة : الرهبان لا يقتلون ولا يسترقون بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم ، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر لقول أبي بكر ليزيد : (ستجد أقواماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له) فإن كانوا مع الكفار في الكنائس قتلوا ، ولو ترهبت المرأة فروى أشهب أنها لا تهاج - أي لا ترعج ولا تنفر - وقال سحنون : لا يغير الترهيب حكمها ، قال القاضي أبو بكر بن العربي : (والصحيح عندي رواية أشهب لأنها داخلة تحت قوله : (فذرهم وما حبسوا أنفسهم له) .

الرابعة : الزمني - أي المقعدين قال سحنون : يقتلون وقال ابن حبيب لا يقتلون والصحيح أن تعتبر أحوالهم ، فإن كانت فيها أذية قتلوا ، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزمانة وصاروا مالاً على حالهم وحشوة .

الخامسة : الشيوخ : قال مالك لا يقتلون ، والذي عليه جمهور العلماء: إن كان شيخاً كبيراً

ينتفع به في رأي ولا مدافعة خيانة لا يقتل، وبه قال مالك وأبو حنيفة وللشافعي قولان : أحدهما - مثل قول الجماعة ، والثاني : يقتل هو والراهب . والصحيح الأول لقول أبي بكر ليزيد ، وخالف له فثبت أنه إجماع ، وأيضاً فإنه ممن لا يقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز قتله كالمرأة وأما إن كان ممن تخشى ضرته بالحرب أو الرأي ، أو المال فهذا إن أسر يكون الإمام فيه مخيراً بين خمسة أشياء : القتل ، أو المن ، أو الفداء ، أو الاسترقاق أو عقد الذمة على أداء الجزية .

السادسة : العسفاء : وهم الفلاحون والأجراء ، فقال مالك لا يقتلون وقال الشافعي يقتل الفلاحون والأجراء والشيوخ والكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية. والأول أصح أي قول مالك لقوله عليه السلام في حديث رباح بن الربيع : (ألق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسفاء) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب . وكان عمر بن عبدالعزيز لا يقتل حراثاً ذكره ابن المنذر ، وطبعاً هذا في حالة عدم مشاركتهم في الحرب أما إذا قاتلوا فيقتلوا . بعد أن أوردنا الدليل من القرآن مصحوباً بأراء العلماء التي جمعها القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن نورد عقب ذلك الأدلة من السنة المطهرة وأقوال الخلفاء الراشدين وقد تقدم بعضها في ذات المبحث والذي سبقه .

1 - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (وُجِدَتْ امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ من قتل النساء والصبيان) (35).

2 - عن بريدة رضي الله عنها قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سريه أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ، وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال له : (اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله - أغزوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً) (36).

3 - وروى مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في وصيته ليزيد بن أبي سفيان : (ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وفي رواية وأناي موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ولا حبيساً ولا كبيراً ولا هرمأً ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا تخربين عامراً ولا تعرض شاةً ولا بغيراً ولمأكله ، ولا تحرقن نخلأً ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تغبن) (37).

4 - وروى الواقدي عن زيد بن ثابت بن أرقم في غزوة مؤتة : فكان رسول الله ﷺ إذا ودع جيشاً قال : (أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معك من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله في سبيل الله ، من كفر بالله ، ولا تغدوا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلأً ولا تقطعوا شجراً ، ولا

تهدموا بناءً) (38). وخلاصة القول من واقع ما أورده القرطبي والأدلة من السنة نقول ما يأتي:

1 - المرأة والصبي والشيخ الهرم والرهبان والزمنى المعقنون والفلاحون والأجراء كل هؤلاء لا يقتلون اللهم إلا إذا شاركوا في الحرب بأي شكل من الأشكال وبأي صورة من الصور فحينها يعاملون على أنهم مقاتلون محاربون لا مدنيون.

2 - على القادة والجنود أن يتعاملوا مع المدنيين غير المحاربين وغير المشاركين في القتال وفق ما يأتي :

أ/ يجب احترامهم وإكرامهم .

ب/ معاملتهم معاملة إنسانية في حدود سلطتك .

ج/ يجب حمايتهم من سوء المعاملة من قبل زملاء الجنود .

د/ احترام ممتلكاتهم .

- لا تحرق ممتلكاتهم

- ولا تهدم منازلهم .

- ولا تتهب .

- ولا تتلف مزارعهم وأشجارهم .

- ولا تتلف .

- ولا تبعثر .

وإذا رجعنا إلى القانون الدولي نجد أنه أشار إلى النقاط السابقة . ولكن وكما وضعنا فقد سبقه الإسلام إلى ذلك بقرون ، وطبقه على أرض الواقع في جميع الغزوات والسرايا والحروب القريبة من عهد النبوية والخلافة الراشدة.

الخاتمة

بعد أن وقفنا على أسس وقواعد القتال في الإسلام وتبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن القتال في الإسلام يختلف عن غيره من القتال عند أرباب العقائد والأفكار الأخرى قديماً وحديثاً وبات من الواضح أن القتال في الإسلام مؤسس على الأصلين القرآنيين الحكيمين (وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ)⁽³⁹⁾. (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)⁽⁴⁰⁾. موفرة على النوع الإنساني ، والمجتمع البشري قدراً كبيراً من الوقت والجهد في تغيير الأحوال ودرء الأخطار، وكانت كما مر معنا خاضعة لآداب أخلاقية وتعليمات رحيمة جعلتها أشبه بعملية التأديب ، منها بعملية التعذيب . والدليل على ذلك قد أريق في جميع غزوات وسرايا الرسول ﷺ أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات فلم يتجاوز القتلى فيها 1018 قتيلاً ألف وثمانية عشر قتيلاً وذلك وفق الاستقراء الدقيق الذي قام به صاحب كتاب (رحمة للعالمين)⁽⁴¹⁾. وكانت حاقة لدماء لا يعلم عددها إلا الله ، عاصمة لنفوس وأعراض لا يحصيها إحصاء ، بأسطة الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله)⁽⁴²⁾.

بعدما كانت الجزيرة كلها ثارات وحروباً وغارات لا تمشي فيها قوافل الفرس والروم إلا بخفارة ساهرة ، وبدقة ماهرة ، ولا القوافل

التجارية إلا بحراسة من كوكبة من الفرسان . قارن ذلك بقتلى
الحربين العالميتين الأولى 1914 - 1918م والثانية 1939م -
1945م ، فقد ورد في دائرة المعارف البريطانية⁽⁴³⁾ أن عدد القتولين
في الحرب العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمائة نفس
(6.400.000) وعدد القتولين في الحرب العالمية الثانية بين خمسة
وثلاثين مليوناً وستين مليون نفس (بين 35.000.000
و60.000.000) ولم تخدم هاتان الحربان مصلحة إنسانية، ولم
يستفد منها العالم البشري في قليل أو كثير فلم تبسط أمناً ، ولم تحقق
دماء ولم تعصم أنفساً ، ولا أعراضاً بل كان العكس تماماً .
وفي ختام هذه الخاتمة لا نملك إلا أن نقول صدق جل شأنه وعظم
سلطانه حين قال : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (44).
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

- (1) البقرة : 256 .
- (2) البقرة : 190 .
- (3) انظر : سيد قطب ، في ظلال القرآن ج 1 ص 187 ، دار الشروق لبنان ، 1402هـ ؛ وصفي عبدالرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص 422 ، مكتبة دار الإسلام : الرياض : 1414هـ .
- (4) سامي جنيه : قانون الحرب والحياد . نقلاً عن محمود شين خطاب : الرسول القائد ص 17 .
- (5) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، والمغازي للواقدي : والسيرة النبوية لابن كثير والكامل في التاريخ لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير وغيرهم من كتب السيرة والتاريخ الإسلامي .
- (6) انظر : السيرة النبوية : ابن هشام ج 2/308 - 322 ، وزاد المعاد 2/122 .
- (7) انظر : الرحيق المختوم : صفي الرحمن / ص 198 .
- (8) المرجع السابق ص 199 .
- (9) الإسراء : 70 .
- (10) السيرة النبوية لابن هشام ج 265 - 266 .
- (11) الأعراف : 158 .
- (12) الحجرات : 10 .
- (13) الرحيق المختوم : صفي الدين المباركفوري : 417 - 419 ، وكانت الغنائم : السبي ألف رأس والإبل عشرون ألفاً والغنم أكثر من أربعين ألف وعدة آلاف أوقية من الذهب والفضة .

(14) انظر : الرسول القائد : محمود شيت خطاب للاستزادة يمكن الرجوع إليه وقد استفدت منه كثيراً في هذا الجزء من التمهيد وبخاصة من ص 332 - 340.

(15) البقرة : 190.

(16) في ظلال القرآن : سيد قطب ج 1 ص 188.

(17) رواه الواقدي عن زيد بن أرقم في غزوة مؤتة .

(18) أخرجه مسلم كتاب الجهاد باب الجهاد والسير .

(19) رواه مالك في كتاب الجهاد .

(20) الرسول القائد : محمود شيت خطاب : ص 336 .

(21) الرحيق المختوم : صفى الرحمن المباركفوري ص 443.

(22) أخرجه مسلم : كتاب الجهاد باب الجهاد والسير .

(23) أخرجه أحمد ج 4 ص 207.

(24) أخرجه أبوداود وأحمد .

(25) أخرجه الشيخان .

(26) أخرجه أبوداود .

(27) انظر : السيرة النبوية غزوة أحد .

(28) الحرب والحياد : سامي جنيبة : نقلاً عن محمود شيت خطاب : الرسول القائد : ص 88.

(29) محود شيت خطاب : الرسول القائد ، ص 88.

(30) الحرب والحياد : سامي جنيبة نقلاً عن محمود شيت خطاب الرسول القائد ص 87.

- (31) السيرة النبوية لابن كثير ج 2 ص 475.
- (32) في ظلال القرآن : سيد قطب ، جـ3 ص 1553.
- (33) البقرة : 190 .
- (34) الجامع لأحكام القرآن : القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري ، جـ1 ، ص 348.
- (35) أخرجه مالك والشيخان وأبوداود والترمذي .
- (36) أخرجه مسلم وأبوداود والترمذي - تقدم .
- (37) راجع موطأ مالك كتاب الجهاد ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبري .
- (38) رواه الواقدي عن زيد بن أرقم في غزوة مؤتة - تقدم .
- (39) البقرة : 191 .
- (40) البقرة : 179 .
- (41) رحمة للعالمين : القاضي محمد سليمان المنصوري جـ2 نقلاً عن السيرة النبوية للنووي ص 318.
- (42) أخرجه البخاري باب علامات النبوة .
- (43) دائرة المعارف البريطانية ج19 ص 669 و 1013 وطبعة 1974م نقلاً عن النووي .
- (44) الأنبياء : 107.

المصادر والمراجع :

1.	القرآن الكريم .
2.	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبدالباقى ، مطبعة المكتبة الإسلامية ، استنبول ، 1982م تركيا .
3.	صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري . بدون تاريخ الإنشاء.
4.	صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري ، بدون تاريخ .
5.	الموطأ : مالك بن أنس الأصبحي ، بدون تاريخ .
6.	زاد المعاد : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن أيوب ، بدون تاريخ.
7.	جامع الترمذي : أبو عيسى بن عيسى بن سورة الترمذي . بدون تاريخ.
8.	سنن أبي داود : أبو داود سليمان بن الأشعث ، بدون تاريخ .
9.	رحمة للعالمين : محمد سليمان المنصور فوري . بدون تاريخ .
10.	الرحيق المختوم : صفى الرحمن المباركفوري : مكتبة دار السلام : الرياض : 1414هـ .
11.	السيرة النبوية : أبو الحسن علي الحسنى النووي : دار الشروق جدة ، 1401هـ .
12.	في ظلال القرآن : سيد قطب : دار الشروق : لبنان : 1402هـ .
13.	السيرة النبوية : لابن هشام : دار الفرقان : بدون تاريخ .
14.	الرسول القائد : محمود شبت خطاب : مكتبة الحياة : بيروت : 1960م .
15.	الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتاب العربي : بدون تاريخ .
16.	السيرة النبوية : إسماعيل بن كثير .
17.	المغازي : أحمد بن عمر الواقدي : دار الكتب العلمية بدون تاريخ.